

وتسمى المصانع المدفونة التومولوس وهي تشبه أكمة عن بعد وإذا فتحت يجد المرء في داخلها غرفة من الحجر وكثيراً ما تكون مبنطة بألواح من الصخر. وترى منها في بلاد الدانينرك وألمانيا الشمالية مصانع مثورة ويسمى أهالي تنك البلاد تنك المصانع المدفونة قبور الجبارين.

والمصانع الميكالية كثيرة خارج أوروبا وفي الهند وغنى شاطئ أفريقية. ولا نعني أي الشعوب استطاعت إخراج مثل هذا الشقيف ونقنه ولقد جاء زمن طويل كانوا يظنون فيه أن قدماء الغالين والسنتين هم الذين عنوا باستخراجها ونقلها ومن هنا جاء اسم المصانع السنتية ولكن ذلك مردود إلى أن ثبت وجود مثل هذه المصانع في أفريقية والهند.

وإذا فتحت بعض هذه المصانع المدفونة غير المسوسة تجد فيها كل حين هياكل عظام وكثيراً ما يكون عدة هياكل وهي إما جالسة أو مضطجعة فهذه المصانع عبارة عن قبور فتجد بالقرب من الميت أسنحة وآنية ونقوشاً. وفي أقدم هذه القبور ترى الأسنحة عبارة عن فروس من الحجر الصقيل والنقوش هي أصداف ولآلئ وعقود من عظم أو من عاج والآنية بسيطة للغاية بدون عروة ولا عتق بل هي مزدانة فقط بخطوط أو بنقط وترى فيها عظام حيوانات منقاة غنى الأرض مكنسة وهي بقايا طعام قدم في جنازة اتنيت قدمه احبابه إلى قبره. وليس بين هذه العظام أثر ولعظم الوعل وهذا ما يستدل منه غنى أن هذه المصانع بنيت عنلما اندثر جنس الوعل ومن أقطارنا إلى بعد زمن القرى الجنية في البحيرات.

القفز (النحاس الذي لا يعمل فيه الحديد) استعمل البشر المعادن منذ عرفوا إذابتها ليصنعوا منها أسلحتهم بفضلين لها على الحجر. فأول معدن شاع بالاستعمال هو النحاس لمهولة استخراجة لأن منه الصافي السهل على التطريق إذ يمكن تطريقه بارداً ولكن لم يستعمل النحاس الخالص ومنه تصنع أسلحة سريعة العطب قابلة للتقيد. ولذلك مزجوه بـ ١٠ / ١ من القصدير ليزيد صلابته وهذا المزيج من النحاس والشبه هو الذي يستعملونه القفز.

أدوات البرونز - صنعوا من القفز أدوات العمل (كالمدي والمطارق والمناشير والإبر والصانير) وأدوات للزينة (أساور ومفايد وقراط) وصنعوا منها أسلحة بوجه مخصوص (مثل الخناجر ورج الرماح والفروس والسوف) ويوجد من هذه المصنوعات في قارة أوروبا عامة في المصانع المدفونة وفي نضائد الرخام الحديثة وفي معادن الحجر المشتعل ببلاد الدانيمرك وفي مدافن الحجر وكثيراً ما يكشف بالقرب من هذه المصنوعات من البرونز أدوات الزينة من ذهب وأحياناً بقايا ثوب من الصوف. ولا يتأتى أن تكون جميع أدوات البرونز متشابهة بالعرض ومعمولة من مزيج معين. لا جرم أن تاريخها يرد إلى عهد واحد وهو مقدم على وصول الرومان إلى غالباً إذ لم يظفر بها قط في جانب الآثار الرومانية وإلى اليوم لم يعرف من كان يستعملها.

قرن الحديد - لما كان الحديد أصعب على التطريق وأقسى على العمل من البرونز لم يعرف استعماله إلا مؤخراً. وإذا كان أكثر صلابة لم يستعمل غيره للسلاح منذ عرف. وكان الحديد على عهد هوميروس لبلاد اليونان معدناً ثميناً يدخرونه لصنع السوف ويقون القفز لسائر الاستعمالات ولذلك ترى كثيراً من القبور تحوي أشياء من القفز وأسلحة من الحديد كيفما اتفق.

وهذه السنحة هي فزوس وسيوف والقواس ودرورج ويوجد منها في العادة بالقرب من هيكل عظام وفي قبر حجر أو خشب لأن الخاربين كانوا يدفنون مع أسنحتهم ويعثر منها في ساحة الحروب مخرقة أو ضائعة في قعر حوض من الحجر وقد اكتشف في أحد هذه الأحواض في شنزوينت ١٠٠ سيف و ٥٠٠ رمح و ٣٠ فأساً و ٤٦٠ سهماً و ٨٠ مدية و ٤٠ مقشاً وكنها من الحديد وعنى مقربة من ذلك المكان في مجرى بحيرة قديمة رأوا مركباً عظيماً طوله ٢٠ متراً محملاً كند من اخاز والسيوف والنصال والمدى فالأشياء المعولة من الحديد التي يعثر عنى هذه الصورة لا تحصى وزهي أقل بماء من مصنوعات البرونز لأن الصدأ يأكل الحديد بسرعة فتراها لأول وهنة أكثر قدماً ولكنها في الحقيقة أكثر جدة.

عرف سكان شمة إلى أوروبا الحديد قبل دخول الرومان أي في القرن الأول ب. م. وقد اكتشف في مقبرة قديمة بالقرب من مناجم المنح في هالستاد في بلاد النسا ٩٨٠ قبراً تحوي عنى أدوات من الحديد والبرونز ولم يظفروا معها بقطعة من النقود الرومانية وقد دام قرن الحديد إلى عهد الرومانيين. وإن المصنوعات الحديدية ليعثر عليها مع أدوات الزينة الذهبية والفضية والأواني الخزفية الرومانية ونواويس وكتابات ونقود رومانية عنى مثال صور الإمبراطور والخاربون الذين نراهم مضطجعين بالقرب من سيوفهم ودرورجهم كانوا في الأكثر إلى عهد قريب منا وكان كثير منهم عنى عهد الميروفنجيين وبعضهم أيضاً عنى عهد شارلمان. فليس قرن الحديد إذاً من القرون التي تعد قبل زمن التاريخ.

الخلاصة

ماذا يراد من القرون الأربعة - استعمل سكان البند الواحد الأحجار المنحوتة فالأحجار المصقولة فالقنز فالحديد ولكن البلاد كنها لم تكن تستعمل في القرن الواحد المعدن الواحد فالصربون استخدموا الحديد في حين كان اليونان يستعملون القنز وبرابرة الدانيمرك مازالوا عني استعمال الحجر ولم ينته عصر الحجر المصقول في أميركا إلا عندما وصل إليها الأوروبيون وظل المتوحشون من أهل أستراليا إلى أيامنا هذه في عصر الحجر النحت ولا يوجد في منازل عسكرهم سوى أدوات من العظام وقداحات تشبه ما كان يستعمله سكان الغيران فليس للعصور الأربعة إذن أدوار في حياة الإنسانية بل في حياة كل منكة عني حدتها فقط.

شكوك - ما برح علم الآثار قبل التاريخ من العلوم الحديثة النشأة وما نعرفه عن البشر الأصيلين تعنسها من بقايا حفظت بالعرض ووجدت كذلك وعني ذلك وقد تؤدي صدمة جديدة وحفيرة أو خندق واهيار أرض وجفاف مطر إلى اكتشاف جديد. ومن يعرف ما هو مدفون في بطن الأرض حتى الآن فإن ما عشر عليه اليوم من المدفونات حتى اليوم من الأشياء لا يقع تحت الحصر ولكن قننا تفيدنا فيما نريد أن نعرفه. فكم من زمن دام كل عصر من العصور الأربعة؟ ومتى بدأ وانتهى في البندان المختلفة؟ ومن أي الشعوب أتت صوب الغيران والكهوف والقرى في وسط البحيرات والمصانع المدفونة في التضائل الحجرية؟ وعندما تنقل منكة من عصر الحجر المصقول إلى القنز هل يكون الشعب نفسه قد غير أدواته أو خلفه شعب آخر؟ وعندما يتعقد بعضهم أنهم ظفروا بجواب عني ذلك يحدث اكتشاف جديد يكذب عناء الآثار فقد كان يظن أن

النضائد الحجرية جاءت من السلتيين فوجدوا منها في محال لم يتطع السلتيون أن يجازوها.

مسائل محنولة

ومع هذا فإن ثلاث مسائل يظهر أنها محنولة :

- (١) الإنسان هو قديم عني الأرض لأنه عرف الماموت ودب الكهوف فكان يعيش عني الأقل خلال العصر الذي يقال له العصر الرباعي .
- (٢) انتقل الإنسان من حالة الهمجية حتى وصل إلى المدنية وحسن بالتدريج آلاته وأدوات زيتته من الفأس الحقيير المعمول من الصوان والعقد المؤلف من أسنان الدبة إلى سيوف الحديد وحنلي الذهب وذلك لأن الأدوات الغنيظة كثيراً هي أيضاً عريقة في القدم .
- (٣) تقدم الإنسان تقدماً سريعاً ومكان كل عصر أقصر مما سبقه .

غاليا

شعوب غاليا المسخنة - كانت البلاد التي يسكنها (الفرنسيون) تدعى قديماً بلاد غاليا ويريدون بهذا الاسم جميع الصقع المنتد من جبال البيرينية إلى الألب والرين فالبحر هذه البلاد الواسعة لم تكن مئكة واحدة بل كانت تنقسم بين مئة من الشعوب الصغيرة عني الأقل ولكل منها حكومتها وجيشها يحارب بعضها بعضاً.

وهذه الشعوب مؤلفة من ثلاثة عناصر مختلفة

- (١) كان الإيريون وهم من نفس عنصر سكان إسبانيا يتكلمون في الجنوب في البلاد الواقعة بين جبال البرنيد وهر الغارون بنغة لا تسيد بوجد من الوجوه اللغات التي يتكلم في أوربا وما زال يتكلم بها إلى الآن الباسك في البرنيد.

(2) كان السنتيون في الوسط أي من همر الغارون إلى همر المارن من عنصر سكان إيرلاندا نفسه ولغتهم تشبه اللغة التي يتكلم بها في إيرلاندا وفي بلاد الغال وبريطانيا.

(3) في الشمال من همر المارن إلى همر الرين الشعب البنجيكي الذي كان بعضه من السنتيين والآخر من الجرمانيين أي من نفس الشعوب التي تسكن ألمانيا.

فلم يكن في غاليا من ثم وحدة في الجنس ولا وحدة في اللغة.

ديانة الغاليين - كانت ديانة الشعوب الغالية اشبه بديانة اليونان والرومان فيعبدون عدة آرباب تمثلها أصنام. ونحن لا نعرف أيضاً أسماء هذه الآرباب ولكننا نعرف أهمها. وهي رب الشمس (بنن) وربة القمر (بنزانن) ورب الفصاحة ويمثونه في سلاسل ذهب خارجة من فمه لتقيد الحضور ورب مكلف بأن يقود إلى جهنم أرواح الموتى (توتاتس) ورب الرعد ورب يدعى المقزع كان يسكن الغابات المظلمة. وكانوا يقدمون لهذه الآرباب إكراماً لها وكثيراً ما يذبحون لها ذبائح بشرية يختارونها إما من الجناة المحكوم عليهم بالإعدام أو من أسرى الحرب وكان في غاليا طبقة من الناس وقفت نفسها على خدمة الدين وهم الدوروديون يجسعون خاصة من شبان الأسر الشريفة وهم في العادة ينوون التجل فلا يتزوجون وكان للدوريديين مذاهب دينية تخالف دين الشعب ولم ينته إلينا ما يعرفنا بهذين المذهبين ولا نعلم أنهم كانوا يعتقدون بخلود الروح. وكانوا يسمون فسطاناً أبيض ونعالاً ويقضون بأيديهم قضباناً بيضاء يستعملونها في الأعمال السحرية لنهم كانوا كهنة وأطباء وسحرة وقضاة في آن واحد. وكانوا يرون أن لبعض النباتات فضيلة ذاتية ولا سيما دبق (عنم) البنوط وهو النبات الذي يشفي بزعمهم من دعامه الأمراض فكانوا يجنونه باحتفال حافل بمناجل من ذهب في اليوم السادس من آخر شهر في الشتاء.

أخلاق الغالين وعاداتهم - كانت الشعوب الغالية إلى القرن الأول من التاريخ المسيحي برابرة متوحشين يعيشون إلا قليلاً كما يعيش اليونان قبل هوميروس أو الرومان في أوائل أمرهم وكانت البلاد مغطاة بغابات واسعة يسكنها الذئاب والأيتل والنعام والديبة وفيها بطائح مؤلفة من ائجار ولم يكن فيها من طرق سوى الضيق المعوج ولم تكن البيوت سوى أكواخ صغيرة من خشب أو من لبن مغطاة بقش لا نوافذ لها ولا مداخن ولها في السقف حرق يصعد منه الدخان حتى أنه لم يكن الأغنياء الغالين أثاث ولا فرش بل كانوا ينامون على القش أو على جنود ويأكلون بأيديهم ولم يكن لهم مدن يصح إطلاق لفظ مدينة عليها بل لهم أسوار من الحجر يسكن داخلها القوم ويتحصنون أيام الحروب وهناك كانت تقام الأسواق وتعد مجتمعات ائخاريين والأشراف.

ولكم يكن سكان البلاد متساويين فيما بينهم فكان الفلاحون طبقة دينية وائخاربون الذين يقاتلون على خيولهم هم طبقة الأشراف وهؤلاء وحدهم هم الحكام وكان لبعض الشعوب زعيم سام أي منك (ولفظ ريكس) الغالية التي توجد في عدة من أسماء رؤسائهم مثل أميوريكس بوايوريكس فرسينوجيتوريكس وغير ذلك هي نفس اللفظ اللاتيني ريكس.

وكان ائخاربون يتفحون برمح لها سنان من القنز وبسيف ثقيل من الحديد وينسبون خوذة وترساً من الخشب ولم يكونوا ينسبون الدروع. ويفوق الغاليون اليونان والرومان من جهة واحدة فقط هو أن ثيابهم كانت أكثر ملائمة وأحسن صنفاً للتوقي من البرد. فبدلاً من أن ينسوا مثلهم ثياباً طويلة تربك صاحبها وتترك ساقيه عريانين ونعدي تكشفان رجليه كانوا ينسبون نوعاً من السراويل (البري) ومشحاً وضرباً من

ضروب الأردية (السي) أشبه بما يبسه الجينيون من أهل إيكوسيا وأحدية تسمى كاليكا الغالية ومنها جاءت لفظة كالوش الفرنسية واقتبس الرومانيون تلك السراويل الغالية.

غالية الرومانية

كيف أصبحت غاليا رومانية - استوطن الرومان بادئ بدء الشطر الجنوبي من غاليما في جوار إيطاليا حيث طاب لهم الهواء وأطلق على البلاد جبال البيرنه إلى جبال الألب اسم بروفانس أي ولاية (وبقي اسم بروفانس يطلق على القسم الشرقي من شرقي نهر الرون) فتم محض زمن طويل حتى اشتهت بلاد إيطاليا ولما افتتح قيصر بقية بلاد غاليا خف سكانها إلى التخفي عن عاداتهم واقتباس عادات الرومان فعادروا القرى ونزلوا المدن حيث انشئوا المعابد ودور تمثيل وحمامات وبيوت من رخام مفروشة بالفسيفساء على نحو ما اعتاد أغنياء الرومان.

وحذا السكان حدوا الأشراف فتركوا بالتدريج حتى لغتهم واخذوا يتكلمون باللاتينية ومن اللاتينية التي تكلم بها العامة في المنكة الرومانية نشأت اللغات الرومانية كالفرنسوية والإيطالية والإسبانية ويكاد لم يبق في الإفريقية سوى كلمات عطفية من اللغات الغالية (مثل بك منقار كوك دينك ألويت قبيرة مازن تراب كنسي ممزوج بصنصال دون كتيب ليو فرسخ).

نظام غاليا - لم تدر الشعب الصغرى التي كانت تتقاسم غاليا بل تألفت من كل واحد منها مدينة سميت باسم سكانها (مثل سواسون تريف ليوج باريز) وكلما أنشئت مدن جديدة تضاف إلى ما أنشئ من نوعها قبلاً. وانضمت عدة مدن متألفت منها